مجموعة القصص الدينية

بإشراف محمد أحمد برانق



٩

أصحاب الأخدود

دار المعارف بمصر

مجموعة القصص الدينية

٩

بإشراف
محمد أحمد برانق

أصحابُ الأخدودْ

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

١

كانَتْ نَجْرانُ بَلْدَةً بأَطْرافِ الْيَمَنِ ، وَتَقَعُ مِنْها في ناحِيَةِ الشِّمالِ ، نَزَلَها حِينَ كانَتْ وادِيًا قَفْرًا الْمُرْعِفُ بْنُ سَبَأٍ فَأَنْشَأَها وَعَمَّرَها ؛ ثُمَّ مَرَّ عَلَيْها ما مَرَّ عَلَى الْيَمَنِ مِنْ أَحْداثٍ وَتَقَلُّباتٍ ، وَطَوَتْ ما طَوَتْهُ الْيَمَنُ مِنْ أَجْيالٍ وَأَحْقابٍ .

وَكانَتِ الْيَمَنُ تَدِينُ فِي أَغْلَبِ عُصُورِها الْأُولَى بِالْوَثَنِيَّةِ ، وَيَعْبُدُ أَهْلُها الشَّمْسَ ، وَيَسْجُدُونَ لَها ، وَيُعَظِّمُونَ النَّارَ وَيَسْتَشِيرُونَها فِي أُمُورِهِمْ ، وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَيْها وَهِيَ خَرْساءُ بَكْماءُ ، لا تَأْكُلُ إِلَّا الْقَشَّ وَالْحَطَبَ .

خَرَجَ أَحَدُ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، وَهُوَ تُبَّانُ أَسْعَدَ أَبُو كَرِبٍ فِي إِحْدَى غَزَواتِهِ ، فَمَرَّ بِبِلادِ الْحِجازِ ، وَمَرَّ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَسُكّانُها إِذْ ذاكَ نَفَرٌ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ تَرَكُوا الْيَمَنَ قُبَيْلَ غَرَقِ أَرْضِهِمْ بِانْهِيارِ سَدِّ مَأْرِبَ . وَحَصَلَ لِتُبَّانَ مَعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هٰؤُلاءِ مِنَ الْأُمُورِ ما جَعَلَهُ يُصَمِّمُ عَلَى قِتالِهِمْ ، وَتَدْمِيرِ

مَدِينَتِهِمْ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَبْرَانِ مِنْ أَحْبَارِ ٱلْيَهُودِ يَرْجُوَانِهِ ٱلْكَفَّ عَنْهُمْ ، وَالِانْصِرَافَ عَنْ مَدِينَتِهِمْ .

وَمَالَ الْمَلِكُ إِلَى السَّمَاعِ لَهُمَا ، وَجَلَسَ مَعَهُمَا يُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِهِمَا فَقَالَا :

أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ : لَا تُخَرِّبْ بَلْدَتَنَا ، وَلَا تَكُنِ السَّبَبَ فِي هَلَاكِنَا . فَهٰذِهِ ٱلْبَلْدَةُ سَتَكُونُ فِيمَا بَعْدُ مُهَاجَرًا لِنَبِيٍّ يَكُونُ لَهُ فِيهَا دَارٌ وَقَرَارٌ .

وَدَهِشَ ٱلْمَلِكُ لِقَوْلِهِمَا وَسَأَلَهُمَا : وَمَا ٱلَّذِي أَعْلَمَكُمَا بِهٰذَا ٱلْعِلْمِ ، وَعَرَّفَكُمَاهُ؟

قَالَا : أَعْلَمَنَا بِهٰذَا دِينُنَا ، وَعَرَّفَنَا ذٰلِكَ كِتَابُنَا !

سَأَلَ ٱلْمَلِكُ : وَمَا هُوَ دِينُكُمْ ؟ وَمَا هُوَ كِتَابُكُمْ ؟ !

قَالَا : دِينُنَا ٱلْيَهُودِيَّةُ ، وَكِتَابُنَا التَّوْرَاةُ .

ثُمَّ حَدَّثَا ٱلْمَلِكَ عَنْ دِينِهِمَا ، وَعَنْ إِيمَانِ ٱلْيَهُودِ بِاللهِ وَعِبَادَتِهِمْ لَهُ .

وَمَالَ ٱلْمَلِكُ لِهٰذَا ٱلدِّينِ ، وَرَآهُ خَيْرًا مِنْ دِينِ ٱلْإِشْرَاكِ



أهل نجران يعبدون النخلة وقد علقوا بها بعض ملابسهم
وفيميون واقف على بعد مع سيده متألماً

والْوَثَنيَّةِ ، ورَغِبَ فِي عِبادَةِ اللهِ وحْدَهُ بَدَلًا مِنْ عِبادَةِ الْأوْثانِ ، والسُّجُودِ لِلشَّمْسِ ، وتَعْظِيمِ النَّارِ ؛ فَطَلَبَ مِنَ الْحَبْرَيْنِ أَنْ يَصْحَبَاهُ إِلَى الْيَمَنِ ، حَيْثُ يَرْجُو لقَوْمِهِ الْإِيمانَ عَلَى أَيْدِيهِما . فَأَجَابَهُ الْحَبْرَانِ إِلَى طَلَبِهِ، وسَارَا مَعهُ إلَى الْيَمَنِ .

وَكانَ هٰذَا بِدَايَةً لِدُخُولِ الْيَهُودِيَّةِ الْيَمَنَ، ومَبْدَأً لِانْصِرَافِ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِها عَنِ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ إِلَى التَّوْحِيدِ باللهِ !

أَمَّا نَجْرَانُ فَقَدْ ظَلَّتْ عَلَى حَالِهَا يَدِينُ أَهْلُها لِلْأَوْثَانِ ، يَعْبُدُونَ كُلَّ مَا دَخَلَ فِي اعْتِقادِهِمْ أَنَّهُ أَهْلٌ لِلْعِبادَةِ ، ويُقَدِّسُونَ كُلَّ ما صَوَّرَتْهُ لَهُمْ عُقُولُهُمْ أَنَّهُ مَحَلٌّ لِلتَّقْدِيسِ حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ويُقَدِّسُونَ نَخْلَةً عَالِيَةً لَهُمْ بِأَرْضٍ فَضَاءٍ ، ويُقِيمُونَ لَهَا عِيدًا فِي كُلِّ سَنَةٍ ، يَخْرُجُونَ إِلَيْها فِيهِ ، فَيَعْكُفُونَ عَلَى عِبادَتِها ، ويُعَلِّقُونَ بِها مَلَابِسَهُمْ وأَثْوَابَهُمُ الْجَدِيدَةَ الْتِماسًا لِبَرَكَتِها !

٢

وَبَيْنَمَا كَانَتْ هٰذِهِ هِيَ ٱلْحَالَةُ الدِّينِيَّةُ لِلْيَمَنِ وَمَا حَوْلَهَا، كَانَتِ الشَّامُ وَالرُّومُ مَسْرَحاً لِلنِّضَالِ بَيْنَ ٱلْيَهُودِ، وَبَيْنَ النَّفَرِ الْأُوَلِ مِنْ أَنْصَارِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى مِنَ ٱلْإِيمَانِ بِاللهِ وَالتَّوْحِيدِ بِهِ.

كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بُعِثَ قَبْلَ ذٰلِكَ نَبِيًّا، وَلَاقَى مَا لَاقَى مِنَ اضْطِهَادِ ٱلْيَهُودِ لَهُ وَلِدِينِهِ، وَكَانَ أَتْبَاعُهُ كَذٰلِكَ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ حُورِبُوا، وَاضْطُهِدُوا، وَشُرِّدُوا فِي أَنْحَاءِ الْأَرْضِ، وَشُتِّتُوا فِي أَرْجَائِهَا. فَكَانُوا يَحْتَمِلُونَ الْعَذَابَ وَالاضْطِهَادَ وَالتَّشَتُّتَ وَالتَّشَرُّدَ فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَاقُوا ٱلْعَذَابَ، وَتَحَمَّلُوا التَّشَتُّتَ وَالتَّشَرُّدَ فِي أَنْحَاءِ الْأَرْضِ فِي سَبِيلِ دِينِهِمْ، رَجُلٌ صَالِحٌ تَقِيٌّ يَعْمَلُ بَنَّاءً اسْمُهُ فَيْمِيُونَ.

وَكَانَ فَيْمِيُونُ هٰذَا لَا يَكُفُّ عَنِ ٱلْعِبَادَةِ وَذِكْرِ ٱللهِ، وَلَا يَنْقَطِعُ عَنِ التَّعَبُّدِ وَالصَّلَاةِ؛ فَإِذَا أَمْسَى ٱلْمَسَاءُ خَرَجَ إِلَى

ٱلْخَلاءِ ، أَو اعْتَكَفَ فِي مَكَانٍ قَصِيّ ، وَتَفَرَّغَ لِصَلاتِهِ وَعِبَادَتِهِ. فَإِذَا شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَمْرُهُ ، وَعَرَفُوا ما يُخْفِي مِنْ دِينِهِ ، تَرَكَ ٱلْبَلْدَةَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا وَانتقَلَ إِلَى بَلْدَةٍ أُخْرَى . وَبِهٰذَا كَانَ فَيْمِيُونُ لا يَكَادُ يَسْتَقِرُّ فِي بَلْدَةٍ حَتَّى يَنْتَقِلَ إِلَى قَرْيَةٍ ، وَلا يُقِيمُ بِقَرْيَةٍ حَتَّى يَنْتَقِلَ إِلَى أُخْرَى؛ فَانْتَقَلَ إِلَى بِلادٍ يَدِينُ أَهْلُهَا بِالْيَهُودِيَّةِ ، وَانْتَقَلَ إِلَى بِلادٍ يَدِينُ أَهْلُهَا بِالْمَجُوسِيَّةِ ، وَتَنَقَّلَ بَيْنَ قُرًى يَعْبُدُ أَهْلُهَا ٱلْأَصْنَامَ ، وَيَدِينُونَ بِالْوَثَنِيَّةِ .

وَفِي إِحْدَى هٰذِهِ ٱلْقُرَى انْتَبَهَ إِلَى أَمْرِ فَيْمِيُونَ شَابٌّ اسْمُهُ صَالِحٌ ، لَحَظَ عَلَى فَيْمِيُونَ حُبَّهُ لِلاعْتِكَافِ، وَمَيْلَهُ إِلَى الْوَحْدَةِ، فَرَاقَبَهُ خِفْيَةً فَرَأَى مِنْ عِبَادَتِهِ وَصَلاتِهِ مَا جَعَلَهُ يَدْهَشُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَرَأَى مِنْ صَلاحِهِ وَتَقْوَاهُ مَا حَبَّبَهُ فِيهِ فَصَارَ يَتَتَبَّعُهُ أَيْنَمَا سَارَ وَأَيْنَمَا تَوَجَّهَ ، فَإِذَا مَا جَلَسَ فَيْمِيُونُ فِي خَلْوَتِهِ لِلصَّلاةِ وَٱلْعِبَادَةِ ، جَعَلَ هُوَ يُرَاقِبُهُ مُخْتَلِسًا إِلَيْهِ النَّظَرَ ، مُسْتَرِقًا السَّمْعَ ، وَهُوَ مُعْجَبٌ كُلَّ ٱلْإِعْجَابِ بِهِ .

وَانْتَقَلَ فَيْمِيُونُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ الَّتِي بِهَا صَالِحٌ إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى ،

كَعَادَتِهِ فِي التَّنَقُّلِ ، فَلَمْ يَشَأْ صَالِحٌ الَّذِي كَانَ قَدْ مَالَ إِلَى فَيْمِيُونَ وَإِلَى طَرِيقَةِ عِبَادَتِهِ أَنْ يَتْرُكَهُ ، فَتَبِعَهُ أَيْضًا مُتَخَفِّيًا .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي جَلَسَ فَيْمِيُونُ كَعَادَتِهِ فِي أَرْضٍ خَلَاءٍ مَهْجُورَةٍ يُصَلِّي وَيَتَعَبَّدُ ، وَجَلَسَ صَالِحٌ عَلَى مَرْمَى النَّظَرِ مِنْهُ يُشَاهِدُ وَيُنْصِتُ وَيَتَأَمَّلُ .

وَبَيْنَمَا فَيْمِيُونُ مُسْتَغْرِقٌ فِي صَلَاتِهِ ، مُنْهَمِكٌ فِي عِبَادَتِهِ — خَرَجَتْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ وَالْأَحْجَارِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَجْلِسِهِ دَابَّةٌ وَحْشِيَّةٌ هَائِلَةٌ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ نَحْوَهُ .

وَرَأَى صَالِحٌ الدَّابَّةَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَهِيَ مُقْبِلَةٌ نَحْوَ فَيْمِيُونَ ، فَلَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يُحَذِّرُ فَيْمِيُونَ : يَا فَيْمِيُونُ ؛ اِحْذَرِ الْحَيَّةَ ! ! يَا فَيْمِيُونُ ؛ قَدْ أَقْبَلَ التِّنِّينُ نَحْوَكَ !

وَلَمْ يَتَحَرَّكْ فَيْمِيُونُ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ عَنْ صَلَاتِهِ ، بَلْ ظَلَّ مُنَكِّسَ الرَّأْسِ جَامِدَ الْحَرَكَةِ ، مَا زَادَ عَلَى أَنْ ظَلَّتْ شَفَتَاهُ تُتَمْتِمُ ! ! وَرُوَيْدًا رُوَيْدًا أَلْقَتِ الْحَيَّةُ

بِرَأْسِهَا إِلَى الْأَرْضِ خَجَلًا مِنْ فَيْمِيُونَ ، أَوْ تَحِيَّةً لَهُ أَوْ إِعْظَامًا لِشَأْنِهِ ، أَوْ مُشَارَكَةً لَهُ فِي عِبَادَتِهِ ، ثُمَّ تَحَوَّلَتْ عَنْهُ تَزْحَفُ مُتَسَلِّلَةً عَائِدَةً مِنْ حَيْثُ أَتَتْ وَاخْتَفَتْ بَيْنَ الْأَحْجَارِ وَالصُّخُورِ .

وَبُهِتَ صَالِحٌ لِمَا رَأَى ! وَاسْتَعْجَبَ لِمَا حَدَثَ !

فَلَمَّا فَرَغَ فَيْمِيُونُ مِنْ صَلَاتِهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَالِحٌ قَائِلًا لَهُ : يَا فَيْمِيُونُ ؛ يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي مَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا مِثْلَمَا أَحْبَبْتُكَ ، فَأَنَا أَتَتَبَّعُكَ وَأَرْصُدُ حَرَكَاتِكَ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، فَأَعْجَبَنِي مِنْكَ تَقْوَاكَ وَصَلَاحُكَ ، وَمِلْتُ إِلَى الدُّخُولِ فِي دِينِكَ ، فَأْذَنْ لِي فِي أَنْ أَصْحَبَكَ وَأُرَافِقَكَ فِي حِلِّكَ وَتَرْحَالِكَ .

فَقَالَ لَهُ فَيْمِيُونُ : إِنْ رَغِبْتَ فِي صُحْبَتِي فَأَمْرِي كَمَا تَرَى ، فَإِنْ عَهِدْتَ فِي نَفْسِكَ الْقُدْرَةَ عَلَى مُلَازَمَتِي فَمَرْحَبًا بِكَ ، وَأَهْلًا بِصُحْبَتِكَ . وَهٰكَذَا لَزِمَ صَالِحٌ فَيْمِيُونَ فِي حِلِّهِ وَتَرْحَالِهِ ، وَنَهَجَ مَنْهَجَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَصَلَاتِهِ ! وَانْتَقَلَ فَيْمِيُونُ وَصَالِحٌ بَيْنَ بِلَادٍ وَقُرًى ، يُخْفِيَانِ عَنِ النَّاسِ عِبَادَتَهُمَا وَنُسُكَهُمَا وَصَلَاتَهُمَا .

وَبَيْنَمَا كَانَا يَجْتَازَانِ بَرِّيَّةً مِنْ بَرَارِي الصَّحْرَاءِ فِي أَحَدِ

تَنَقُّلاتِهِماَ ؛ صادَفَتْهُماَ قافِلَةٌ سَيَّارَةٌ مِنْ قَوافِلِ الْعَرَبِ ، تَخَصَّصَ رِجالُهاَ فِي السَّطْوِ عَلَى الْقَوافِلِ الْآمِنَةِ ، وَالسَّلْبِ وَالنَّهْبِ مِنَ الْقَبائِلِ الْوادِعَةِ ، فَلَمَّا رَأَى أَهْلُ الْقافِلَةِ فَيمِيُونَ وصالِحًا يَجْتازانِ الصَّحْراءَ وَحِيدَيْنِ لَا يَصْحَبُهُماَ رَكْبٌ ، وَلا تَحْمِيهِماَ حامِيَةٌ ، طَمِعُوا فِي سَلْبِهِماَ مَا مَعَهُماَ ، بَلْ زادُوا فاخْتَطَفُوهُمَا لِيَبِيعُوهُمَا عَبْدَيْنِ رِقَّيْنِ.

وَماَ هِيَ إِلَّا هُنَيْهَةٌ حَتَّى كانَ فَيمِيُونُ وَصالِحٌ فِي قَبْضَةِ الْقافِلَةِ، يَجْتازَانِ مَعَهاَ بُطُونَ تِهامَةَ ، ثُمَّ يَقْطَعانِ وِهادَ الْحِجازِ وَنِجادَهُ .

ثُمَّ وَصَلَ الرَّكْبُ إِلَى مَشارِفِ الْيَمَنِ ، وَفِي قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى نَجْرانَ حَطَّتِ الْقافِلَةُ ، وَعُرِضَ فَيمِيُونُ وصالِحٌ لِلْبَيْعِ ، وَجُهِّزَا لِلْعَرْضِ عَلَى مَنْ يَرْغَبُ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فِي الشِّراءِ . وَسُرْعانَ ما أَقْبَلَ النَّاسُ يُعايِنُونَ الْبِضاعَةَ الْمَعْرُوضَةَ ، وَسُرْعانَ ما انْتَقَلَ فَيمِيُونُ وَصالِحٌ إِلَى مِلْكِيَّةِ رَجُلَيْنِ مِنْ أَثْرِياءِ الْقَرْيَةِ .

لَمْ يَكُفَّ فَيمِيُونُ وَصالِحٌ فِي دارَيْ صاحِبَيْهِماَ الْجَدِيدَيْنِ عَنِ الْعِبادَةِ ، وَلَمْ يَنْصَرِفاَ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا كانَا يُكَلَّفانِهِ مِنْ أَعْمالٍ كَثِيرَةٍ عَنِ التَّفَرُّغِ لِلصَّلاةِ .

وَكَانَ سَيِّدُ فَيْمِيُونَ رَجُلًا طَيِّبَ الْقَلْبِ، كَرِيمَ السَّجَايَا، حُلْوَ الشَّمَائِلِ، رَأَى مَا عَلَيْهِ فَيْمِيُونُ مِنْ جِدٍّ فِي عَمَلِهِ، وَمُثَابَرَةٍ عَلَى صَلَاتِهِ، فَتَرَكَهُ وَشَأْنَهُ يَفْعَلُ مَا يَتَرَاءَى لَهُ.

وَأَتَى يَوْمُ الْعِيدِ الَّذِي كَانَ يُقِيمُهُ أَهْلُ نَجْرَانَ لِنَخْلَتِهِمُ الْعَالِيَةِ، فَخَرَجُوا جَمِيعاً يَحْتَفِلُونَ بِهِ وَيَتَعَبَّدُونَ حَوْلَ النَّخْلَةِ، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا مَا يَتَيَسَّرُ لَهُمْ تَعْلِيقُهُ مِنْ مَلَابِسِهِمْ، وَرَأَى فَيْمِيُونُ مَا يَعْبُدُونَ وَمَا يَفْعَلُونَ! فَقَالَ لِسَيِّدِهِ مُسْتَنْكِراً مَا رَأَى:

أَتَعْبُدُونَ نَخْلَةً لَا تَمْلِكُ لَكُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا..! لَوْ شِئْتُ أَنْ أَدْعُوَ رَبِّي لَأَطَاحَ بِهَا!

فَقَالَ السَّيِّدُ مُنْدَهِشاً: وَمَا رَبُّكَ يَا فَيْمِيُونُ؟! وَمَا دِينُكَ؟!

قَالَ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَ كُلَّ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَدِينِي أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ قَالَ سَيِّدُهُ: لَوِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُثْبِتَ لِي مَا تَقُولُ، لَدَخَلْتُ تَوًّا فِي دِينِكَ.

وَبَاتَ فَيْمِيُونُ لَيْلَتَهُ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُبْطِلَ لِأَهْلِ نَجْرَانَ مَا يَدَّعُونَهُ لِلنَّخْلَةِ مِنْ أُلُوهِيَّةٍ وَأَنْ يُؤَيِّدَ لَهُ مَا قَالَهُ لِصَاحِبِهِ.

وَأَمْسَى الْمَسَاءُ عَنْ جَوٍّ عَاصِفٍ ، وَرِيحٍ شَدِيدَةٍ قَوِيَّةٍ ، وَسَحَابٍ مُتَلَبِّدٍ ، وَظَلَّتِ الْعَوَاصِفُ تَشْتَدُّ وَتَقْوَى ، حَتَّى إِذَا مَا أَتَى اللَّيْلُ كَانَتْ رِيحاً صَرْصَرًا عَاتِيَةً ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ .

وَهُرِعَ أَهْلُ نَجْرَانَ يَحْتَمُونَ مِنْ هَوْلِهَا وَشِدَّتِهَا وَرَاءَ مَتَارِيسِ بُيُوتِهِمْ ، وَدَاخِلَ كُهُوفِ جِبَالِهِمْ .

وَانْقَضَى اللَّيْلُ ، وَأَقْبَلَ النَّهَارُ ، وَسَكَنَتِ الْعَاصِفَةُ ، وَهَدَأَتِ الرِّيحُ ، وَانْقَشَعَ السَّحَابُ ، وَخَرَجَ أَهْلُ نَجْرَانَ وَسُكَّانُ قُرَاهَا يُبَاشِرُونَ أَعْمَالَهُمْ ، وَيَقْضُونَ مَصَالِحَهُمْ ، فَإِذَا نَخْلَتُهُمُ الْمُقَدَّسَةُ قَدْ طَوَّحَتْ بِهَا الرِّيحُ ! ! وَإِذَا إِلٰهُهُمُ الْمَعْبُودُ صَرِيعٌ مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ . . ! ! فَآمَنَ سَيِّدُ فَيْمِيُونَ بِهِ ! وَاتَّبَعَ تَعَالِيمَهُ ، وَأَعْفَاهُ مِنْ خِدْمَتِهِ لِمَا رَأَى مِنْ صَلَاحِهِ وَقَدَاسَتِهِ .

فَاتَّخَذَ فَيْمِيُونُ لِنَفْسِهِ صَوْمَعَةً مُنْعَزِلَةً ، بَعِيدَةً عَنِ الْعُمْرَانِ وَاخْتَلَى فِيهَا بِنَفْسِهِ يُصَلِّي وَيَتَعَبَّدُ .

٣

كَانَ أَهْلُ نَجْرَانَ يَحْتَرِمُونَ الْكُهَّانَ ، وَيُقَدِّرُونَ السَّحَرَةَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنَبِّئُونَهُمْ بِأَخْبَارِ الْغَيْبِ ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ مَا سَوْفَ يَقَعُ مِنْ أَحْدَاثٍ . وَكَانَ مَلِكُ نَجْرَانَ يُؤْمِنُ بِسَاحِرٍ شَيْخٍ مُتَبَحِّرٍ فِي عُلُومِ السِّحْرِ ، وَيَسْتَشِيرُهُ فِي كُلِّ أُمُورِهِ ، فَلَمَّا تَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِالسَّاحِرِ طَلَبَ الْمَلِكُ مِنْهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ تِلْمِيذًا يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ ، وَيَشْرَحُ لَهُ أَسْرَارَهُ ، وَيُبَيِّنُ لَهُ خَوَافِيَهُ .

وَوَقَعَ الِاخْتِيَارُ عَلَى غُلَامٍ ذَكِيٍّ اسْمُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ التَّامِرِ . فَطُلِبَ مِنْ وَالِدِهِ أَنْ يُرْسِلَ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى خَيْمَةِ السَّاحِرِ ، حَيْثُ يَتَوَلَّى السَّاحِرُ تَعْلِيمَهُ وَتَدْرِيبَهُ .

وَكَانَتْ خَيْمَةُ السَّاحِرِ تَقَعُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي يُقِيمُ بِهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ التَّامِرِ . وَفِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا كَانَتْ تَقَعُ خَيْمَةُ الْعَابِدِ فَيْمِيُونَ الَّتِي كَانَ يَعْتَزِلُ فِيهَا مُتَعَبِّدًا .

فَكَانَ عَبْدُ اللهِ كُلَّمَا ذَهَبَ إِلَى السَّاحِرِ مَرَّ عَلَى خَيْمَةِ الْعَابِدِ ،

فَيَرَاهُ جَالِسًا يُصَلِّي وَيَتَعَبَّدُ وَيَذْكُرُ اللهَ، فَكَانَ يَدْهَشُ لِحَالِه، وَيَعْجَبُ مِنْ شَأْنِهِ؛ ثُمَّ سَاقَهُ الْفُضُولُ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ عَلَى الْعَابِدِ، وَيَسْأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِ. وَأَعْلَمَ فَيْمِيُونُ الْفَتَى بِمَا رَغِبَ أَنْ يَعْلَمَ، فَأُعْجِبَ الْفَتَى كُلَّ الْإِعْجَابِ بِهِ، وَبِمَا ذَكَرَ لَهُ، وَصَارَ مِنْ ذٰلِكَ الْحِينِ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ فِي غُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ، فَتَعَلَّمَ مِنْهُ مَنْ هُوَ اللهُ! وَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُؤْمِنُ بِهِ، وَكَيْفَ يَعْبُدُهُ!

وَكَثُرَ تَرَدُّدُ عَبْدِ اللهِ عَلَى فَيْمِيُونَ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ لَا يَمُرُّ يَوْمٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعَرِّجَ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ ذَهَابِهِ لِلسَّاحِرِ أَوْ إِيَابِهِ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَقْضِيَ مَعَهُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي التَّأَمُّلِ وَالتَّعَلُّمِ، مِمَّا جَعَلَ السَّاحِرَ يُعَاتِبُ عَبْدَ اللهِ وَيُؤَنِّبُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ، وَمِمَّا جَعَلَ أَهْلَهُ يَسْأَلُونَهُ مُسْتَفْهِمِينَ عَنِ السَّبَبِ فِي غِيَابِهِ الطَّوِيلِ. وَعَبْدُ اللهِ يَكْتُمُ عَنِ السَّاحِرِ وَعَنْ أَهْلِهِ سِرَّهُ، وَيُخْفِي عَنْهُمْ خَبَرَهُ!

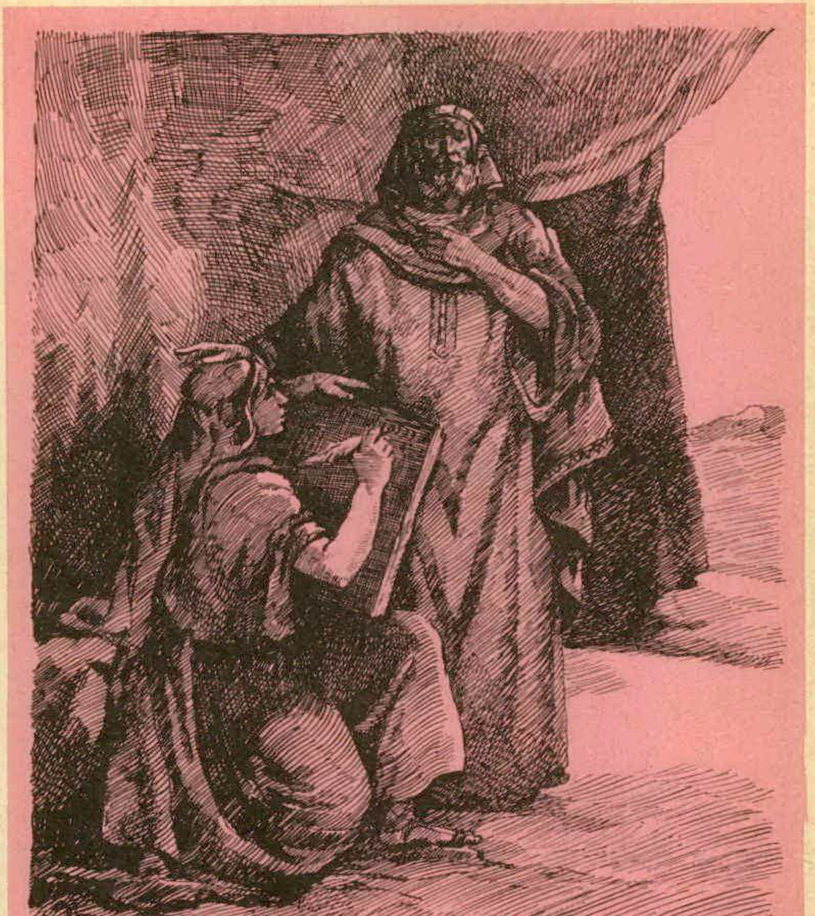
وَبِتَتَابُعِ الْأَيَّامِ كَانَتْ نَفْسُ الْفَتَى تَنْشَرِحُ وَتَتَفَتَّحُ بِمَا يُعَرِّفُهُ فَيْمِيُونُ لَهُ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ، وَبِمَا يُلَقِّنُهُ مِنْ ضُرُوبِ الْعِبَادَةِ فِي حِينَ كَانَتْ نَفْسُهُ تَصُدُّ وَتَنْصَرِفُ عَنْ تَعَالِيمِ السَّاحِرِ،

وَتَضِيقُ بِنَفْثِهِ وَعُقَدِهِ . وَوَقَعَ عَبْدُ اللهِ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ! ! وَقَضَى الأَيَّامَ الْكَثِيرَةَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ : أَأَنْصَرِفُ عَنْ هٰذَا السَّاحِرِ الَّذِي أَرْسَلَنِي أَهْلِي إِلَيْهِ ، وَالَّذِي لَمْ تَرْضَ نَفْسِي عَنْ أَسَالِيبِهِ ؛ وَلَمْ يَمِلْ قَلْبِي لِنَفْثِهِ وَعُقَدِهِ ، وَأُفَرِّغُ نَفْسِي لِهٰذَا الْعَابِدِ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، وَأُكَرِّسُ وَقْتِي لِلتَّزَوُّدِ مِنْ إِرْشَادَاتِهِ وَتَعَالِيمِهِ ؟

وَهٰكَذَا ظَلَّ الْفَتَى تَتَجَاذَبُهُ الْحَيْرَةُ ، وَيَسْتَبِدُّ بِهِ الْقَلَقُ ، لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى قَرَارٍ ، وَلَا يَنْتَهِي إِلَى رَأْيٍ ، حَتَّى مَرَّ يَوْمًا بِأَطْرَافِ الْقَرْيَةِ فَإِذَا بِجَمْعٍ حَاشِدٍ مِنَ النَّاسِ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، وَقَدْ سَدَّ عَلَيْهِمْ طَرِيقَهُمْ أَسَدٌ كَاسِرٌ مُتَرَبِّصٌ ! وَالنَّاسُ فِي خَوْفٍ وَفَزَعٍ وَهَرْجٍ وَمَرْجٍ ، يَتَحَايَلُونَ عَلَى الْفِرَارِ مِنْ وَجْهِ الْأَسَدِ ، وَيُحَاوِلُونَ التَّسَلُّلَ هُنَا وَهُنَاكَ .

وَوَثَبَتْ إِلَى ذِهْنِ عَبْدِ اللهِ فِكْرَةٌ ! وَقَالَ يُخَاطِبُ نَفْسَهُ :

الْآنَ آنَ لِي أَنْ أَخْرُجَ مِنْ حَيْرَتِي ، وَأَعْرِفَ مَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ أَمْرِي ! فَأَعْرِفَ مَنْ هُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ : أَهُوَ السَّاحِرُ أَمِ الرَّاهِبُ ؟ ! ! وَالْتَقَطَ عَبْدُ اللهِ حَجَرًا مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ سَارَ حَتَّى



عبد الله التامر يتلقى العلم من فيميون

أَشْرَفَ عَلَى مَوْقِفِ الْأَسَدِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ بِالْحَجَرِ ثُمَّ قَالَ: اللّٰهمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ، فَاقْتُلْ هٰذَا الْوَحْشَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. ثُمَّ رَمَى الْحَجَرَ عَلَى الْأَسَدِ — وَكَانَ يُجِيدُ الرِّمَايَةَ — فَأَصَابَ بِقُدْرَةِ اللّٰهِ مِنْهُ مَقْتَلًا.

وَرَأَى النَّاسُ الْأَسَدَ الَّذِى كَانَ يُخِيفُهُمْ وَيُرْعِبُهُمْ وَيَسُدُّ طَرِيقَهُمْ قَدْ صُرِعَ فَجْأَةً وَتَجَدَّلَ فَوْقَ الْأَرْضِ، فَدُهِشُوا وَذُهِلُوا، ثُمَّ بَدَءُوا يَعْرِفُونَ الْحَقِيقَةَ الَّتِى زَادَتْهُمْ دَهْشَةً وَذُهُولًا..!! تَهَامَسَ النَّاسُ، وَتَسَاءَلُوا: أَحَقًّا أَنَّ الَّذِى قَتَلَ الْأَسَدَ هُوَ هٰذَا الْغُلَامُ؟!

فَتَكُونُ إِجَابَاتُهُمْ بَعْضُهم لِبَعْضٍ: مَا رَأَيْنَا سِوَاهُ! وَمَا شَاهَدْنَا سِوَى حَجَرٍ يَمْرُقُ فِى الْفَضَاءِ كَأَنَّهُ السَّهْمُ فَيَنْزِلُ عَلَى الْأَسَدِ كَالصَّاعِقَةِ، فَيَخِرُّ الْأَسَدُ صَرِيعًا!!

وَظَلَّ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَمْرِ عَبْدِ اللّٰهِ فِى ذُهُولٍ وَدَهْشَةٍ، وَأَخِيرًا نَفَضُوا عَنْهُمْ ذُهُولَهُمْ وَدَهْشَتَهُمْ، وَتَقَدَّمُوا نَحْوَ عَبْدِ اللّٰهِ يَشْكُرُونَهُ وَيَمْتَدِحُونَهُ بِفَرْحَةٍ وَسُرُورٍ.

شَبَّ عَبْدُ اللّٰهِ وَشَبَّ مَعَهُ إِيمَانُهُ بِاللّٰهِ، فَصَفَتْ رُوحُهُ،

وَتَطَهَّرَتْ نَفْسُهُ ، وَرَسَخَ فِي عَقْلِهِ كُلُّ مَا أَرْشَدَهُ إِلَيْهِ فَيمِيُونُ ؛ فقوِيَ قَلْبُهُ ، وَصَحَّ عَزْمُهُ عَلَى أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى النَّاسِ ، لِيُرْشِدَهُمْ إِلَى طَرِيقِ اللهِ ، وَيُوَجِّهَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ.

وَغَدا عَبْدُ اللهِ يَدْعُو لِدِينِ اللهِ ، وَيُعَرِّفُ النَّاسَ سِرًّا بِمَا لَمْ يَكُونوا يَعْرِفُونَهُ . فَكَانَ يَقْصِدُ إِلَى النَّاسِ يُرْشِدُهُمْ وَيُبَصِّرُهُمْ ، وَيَقْصِدُ إِلَى الْمَرْضَى وَذَوِي الْعَاهَاتِ فَيَقُولُ لَهُمْ :

آمِنُوا بِاللهِ وَأَحْسِنُوا إِيمَانَكُمْ ، ثُمَّ ادْعُوهُ لِأَنْفُسِكُمْ يَشْفِكُمْ بِقُدْرَتِهِ مِنْ أَمْرَاضِكُمْ ، وَيُبْرِئْكُمْ مِنْ أَسْقَامِكُمْ .

وَاتَّبَعَ إِرْشَادَ عَبْدِ اللهِ الْكَثِيرُونَ ، وَتَهَامَسُوا بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَجَهَرُوا بِمَا يَفْعَلُ لِشِفَائِهِمْ مِنْ أَمْرَاضِهِمْ ، وَبُرْئِهِمْ مِنْ أَسْقَامِهِمْ . فَخَشِيَ فَيمِيُونُ عَلَى عَبْدِ اللهِ مَغَبَّةَ هٰذَا الْأَمْرِ ، وَقَالَ لَهُ يُحَذِّرُهُ : يَا عَبْدَ اللهِ ؛ إِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكَ عَاقِبَةَ دَعْوَتِكَ هٰذِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَا عَلَيْهِ مَلِكُ هٰذِهِ الْبِلَادِ مِنَ الضَّلَالِ وَالشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ وَغِلَظِ الْقَلْبِ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ لِأُسْتَاذِهِ يُطَمْئِنُهُ : لَا تَخَفْ عَلَيَّ ، فَاللهُ مَعِي

وَنَاصِرِى ، وَإِنْ حُورِبْتُ وَاضْطُهِدْتُ فِى سَبِيلِ مَا أَدْعُو إِلَيْهِ فَلَنْ أَبُوحَ بِشَىْءٍ عَنْكَ ، وَلَنْ أُرْشِدَ إِلَيْكَ .

وَاسْتَمَرَّ عَبْدُ اللهِ يَسِيرُ فِيمَا اخْتَطَّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْعَمَلِ عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ . وَتَسَامَعَ رَجُلٌ مِنْ خَاصَّةِ الْمَلِكِ — كَانَ قَدْ أُصِيبَ بِضَعْفٍ فِى نَظَرِهِ — بِمَا يَفْعَلُ عَبْدُ اللهِ مِنْ شِفَاءِ الْمَرْضَى ، وَإِبْرَاءِ ذَوِى الْعَاهَاتِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللهِ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ . فَلَمَّا حَضَرَ عَبْدُ اللهِ إِلَى دَارِ الرَّجُلِ قَالَ لَهُ : يَا بُنَىَّ ؛ لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ تَشْفِى الْمَرْضَى ، وَتُبْرِئُ ذَوِى الْعَاهَاتِ ، فَاشْفِنِى مِمَّا أَنَا فِيهِ ، وَلَكَ نَظِيرَ ذٰلِكَ مَالٌ كَثِيرٌ وَهَدَايَا ثَمِينَةٌ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ : مَا أَنَا الَّذِى يَشْفِى ، وَمَا أَنَا الَّذِى يُبْرِئُ .

قَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ سَمِعْتُ بِنَبَئِكَ ، وَحُمِلَ إِلَىَّ خَبَرُكَ ، فَاشْفِنِى وَأَعِدْ إِلَىَّ بَصَرِى كَمَا فَعَلْتَ مَعَ أَمْثَالِى ، وَلَكَ كُلُّ ثَرْوَتِى ، وَجَمِيعُ مَا مَلَكَتْ يَدِى .

قَالَ عَبْدُ اللهِ : يَا سَيِّدِى مَا أَنَا بِمُسْتَطِيعٍ أَنْ أَشْفِىَ ، وَمَا أَنَا بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ أُعِيدَ إِلَيْكَ بَصَرَكَ ، إِنَّمَا اللهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ !

سَأَلَ الرَّجُلُ مُنْدَهِشاً : اَللّٰهُ ! مَنِ اللّٰهُ ؟ ! !

أَجَابَ : رَبِّى وَرَبُّكَ ، وَرَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ! !

سَأَلَ الرَّجُلُ : وَكَيفَ أَبُثُّ لَهُ شَكَاتِى ؟ وَكَيفَ يَشْفِينِى ؟

عِنْدَئِذٍ قالَ عَبْدُ اللهِ : تُؤْمِنُ بِهِ إِيمَاناً صَادِقاً ، وَتَتَّبِعُ ما أَرْشَدَنَا إِلَيْهِ ، وَتَبْتَعِدُ عَمّا نَهَانَا عَنْهُ ، فَإِذَا مَا دَعَوْتَ اللهَ ودَعَوْتُهُ أَنَا لَكَ ، شُفِيتَ بِإِذْنِ اللهِ مِمّا بِكَ .

وجَلَسَ عَبْدُ اللهِ إِلَى الرَّجُلِ يُعَرِّفُهُ مِمَّا يَعْرِفُ ، وَيُعَلِّمُهُ مِمَّا يَعْلَمُ . ثُمَّ لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ قَدِ اسْتَرَدَّ بَصَرَهُ ، بَعْدَ أَنْ آمَنَ قَلْبُهُ وَعَادَ إِلَى مُزَاوَلَةِ عَمَلِهِ بِقَصْرِ الْمَلِكِ .

وَسَأَلَ الْمَلِكُ رَجُلَهُ : كَيْفَ شُفِيتَ يَا هٰذَا ؟ ! وَكَيفَ اسْتَرْدَدْتَ بَصَرَكَ ؟ !

أَجَابَ الرَّجُلُ : شَفَانِى رَبِّى وَرَدَّ لِى بَصَرِى ! !

قَالَ الْمَلِكُ : رَبُّكَ ؟ ! أَلَسْتُ أَنا رَبَّكَ ؟ ! !

قالَ الرَّجُلُ : رَبِّىَ اللّٰهُ ! اَللّٰهُ رَبِّى ورَبُّكَ ! !

وَظَهَرَتْ عَلَامَاتُ الْغَضَبِ عَلَى وَجْهِ الْمَلِكِ عِنْدَ سَمَاعِ

هٰذَا الْقَوْلِ، وسَأَلَ مُحْتَدًّا : مَنْ أَتاكَ بِهٰذَا ؟!ومَنْ أَعْلَمَكَ بِهِ ؟!

وسَكَتَ الرَّجُلُ ولَمْ يحِرْ جَوَابًا، فَقَدْ رَأَى عَلَى وَجْهِ الْمَلِكِ عَلامَاتِ الشَّرِّ، وبَوَادِر الخَطَرِ، فَلَمْ تَرْضَ نَفْسُهُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ عَبْدِ اللهِ، فيُجَازِيَهُ سُوءًا بِمَا فَعَلَهُ مَعَهُ إحْسانًا .

وَعاوَدَ ٱلْمَلِكُ السُّؤَالَ، وَعَاوَدَ الرَّجُلُ السُّكُوتَ، ولَمَّا لَمْ يَجِدْ سُؤَالُ الْمَلِكِ عِنْدَ الرَّجُلِ جَوابًا صَاحَ ٱلْمَلِكُ فِي رِجَالِهِ يَقُولُ : خُذُوا هٰذَا الرَّجُلَ، واغْرُبُوا بِهِ عَنْ وَجْهِي، وعَذِّبُوهُ حَتَّى يَعْتَرِفَ بِمَنْ عَلَّمَهُ ما قَدْ تَعَلَّمَ .

وسَاقَ رِجَالُ الْمَلِكِ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِ أَمامَهُمْ لِيَجْلِدُوهُ ويُعَذِّبُوهُ حَتَّى يَعْتَرِفَ وَيُقِرَّ عَمَّا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ . وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ ظَلَّ عَلَى سُكُوتِهِ وَصَمْتِهِ رَغْمَ التَّعْذِيبِ والتَّحْقِيرِ، وشَاعَ الْخَبَرُ وانْتَشَرَ، وعُرِفَتْ رَغْبَةُ الْمَلِكِ . فتَطَوَّعَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُرْشِدُ عَنْ عَبْدِ اللهِ، وَيُفْضِي بِمَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ .

وَسُرْعانَ ما أُحْضِرَ عَبْدُ اللهِ إلى حَضْرَةِ الْمَلِكِ الّذى سَأَلَهُ :

أَأَنْتَ الّذِى عَلَّمْتَ رَجُلِي مَا عَلِمْتَ وَرَدَدْتَ عَلَيْهِ بَصَرَهُ ؟ ! !

قالَ الْفتى : عَلَّمَتْهُ أَنا تعاليمَ اللهِ، أَمَّا مَنْ رَدَّ عَلَيْهِ بصَرَهُ فهُوَ اللهُ.

قالَ الْمَلِكُ : أَلَسْتَ أَنْتَ الَّذى وَقعَ عَلَيْهِ اخْتِيارُنَا ، فَأَرْسَلْنَاكَ إِلَى السَّاحِرِ لِتَتَعَلَّمَ عَنْهُ وَتَحْمِلَ رِسَالَتَهُ ؟ !

أَجَابَ عَبْدُ اللهِ : بَلَى ! هُوَ أَنا !

قَالَ الْمَلِكُ : وَمَنْ عَلَّمَكَ هٰذَا إِذَنْ ؟ ! !

قَالَ : هَدَانِى اللهُ إِلَى مَنْ أَهْتَدِى عَلَى يدَيْهِ !

قَالَ : أَعْلِمْنَا بِهِ ، وَأَرْشِدْنَا عَنْهُ .

أَجَابَ عَبْدُ اللهِ : هٰذَا سِرٌّ بَيْنِى وَبَيْنَ نَفْسِى، وَلنْ أَبُوحَ بِهِ .

عِنْدَئِذٍ هَدَرَ الْمَلِكُ وَصَخَبَ ، وَأَظْهَرَ غَضَبَهُ الَّذِى كَانَ يَكْبِتُهُ ، وَصَاحَ فِى رِجَالِهِ مِنْ جَدِيدٍ يَقُولُ : خُذُوا هٰذَا الْغُلَامَ الْوَقِحَ فَدَهْدِهُوهُ مِنْ فَوْقِ قِمَّةِ الْجَبَلِ ، أَوْ يَعْتَرِفَ بِمَا يَعْلَمُ .

وَسَاقَ رِجَالُ الْمَلِكِ الْفتَى أَمَامَهُمْ نَحْوَ الْجَبَلِ حَتَّى إِذَا مَا بَلَغُوهُ أَخَذُوا يَتَسَلَّقُونَهُ وَإِيَّاهُ مُصَعِّدِينَ فِيهِ .

وَبَيْنَمَا الْجَمِيعُ يُجَاهِدُونَ فِى اعْتِلَاءِ الْجَبَلِ ، وَعَبْدُ اللهِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَقَدْ طَوَّقُوهُ بِيَدٍ مِنْ حَدِيدٍ — إِذْ بِأَرْجُلِ بَعْضِ الرِّجَالِ

تَنْزَلِقُ مِنْ فَوْقِ صُخُورِ الْجَبَلِ ، وَيُحَاوِلُ إِخْوَانُهُمْ مُسَاعَدَتَهُمْ وَالْإِمْسَاكَ بِهِمْ ، فَيَتَشَبَّثُ الْجَمِيعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَيَنْزَلِقُونَ جَمِيعًا مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ إِلَى سَفْحِهِ صَرْعَى ؛ وَقَدْ أُفْلِتَ عَبْدُ اللهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَنَجَا وَحْدَهُ فَوْقَ الْجَبَلِ !!

وَوَصَلَ خَبَرُ مَا حَدَثَ إِلَى الْمَلِكِ . وَقُبِضَ عَلَى عَبْدِ اللهِ ، وَأُعِيدَ لِلْمُثُولِ بَيْنَ يَدَى الْمَلِكِ مِنْ جَدِيدٍ ؛ وَسَأَلَ الْمَلِكُ عَبْدَ اللهِ :

كَيْفَ قُتِلَ رِجَالِى جَمِيعاً وَنَجَوْتَ أَنْتَ ؟!!

قَالَ عَبْدُ اللهِ : كَفَانِى اللهُ شَرَّهُمْ .

قَالَ الْمَلِكُ غَاضِباً : إِنَّكَ سَتُفْسِدُ عَلَيَّ أَهْلَ مَمْلَكَتِى ، ارْتَدَّ عَنْ دِينِكَ هٰذَا الَّذِى تَدْعُو إِلَيْهِ وَادْخُلْ فِى دِينِنَا وَإِلَّا فَسَأُحَاوِلُ ضَرْبَكَ وَتَعْذِيبَكَ وَالتَّنْكِيلَ بِكَ حَتَّى أُهْلِكَكَ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بِلَهْجَةِ الْوَاثِقِ : لَنْ تَقْدِرَ عَلَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ .

فَصَاحَ الْمَلِكُ فِى رِجَالِهِ يَقُولُ : خُذُوهُ ، فَغَرِّقُوهُ فِى مِيَاهِ نَجْرَانَ ، وَلَا تَدَعُوهُ يُفْلِتُ مِنْ أَيْدِيكُمْ حَتَّى يَغْرَقَ .

وَسِيقَ عَبْدُ اللهِ إِلَى مِيَاهِ نَجْرَانَ ، وَأُلْقِىَ فِيهَا ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ

شُوهِدَ عَبْدُ اللهِ يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِ الْمِيَاهِ إِلَى الضَّفَّةِ الْأُخْرَى !!

وَقُبِضَ عَلَى عَبْدِ اللهِ مِنْ جَدِيد ، وَسِيقَ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِى أَخَذَ مِنْهُ الْعَجَبُ مِنْ أَمْرِ عَبْدِ اللهِ كُلَّ مَأْخَذٍ . فَقَالَ لَهُ :

سَأَشْطُرُكَ بِالسَّيْفِ هَاهُنَا بِيَدِى !

قَالَ عَبْدُ اللهِ : وَهٰذَا أَيْضًا لَنْ تَسْتَطِيعَهُ !

وَدَهِشَ الْمَلِكُ مِنْ ثَبَاتِ عَبْدِ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ أُمِيتُكَ ؟ !

أَجَابَ : لَنْ تُمِيتَنِي ، وَلَنْ تُصِيبَ مِنِّى مَقْتَلًا حَتَّى تُؤْمِنَ بِاللهِ !

لَمْ يَجِدِ الْمَلِكُ بُدًّا بَعْدَ هٰذَا كُلِّهِ مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللهِ ، فَآمَنَ ، وَشَهِدَ شَهَادَةَ عَبْدِ اللهِ بْنِ التَّامِرِ ! !

حِينَئِذٍ تَقَدَّمَ الْفَتَى مِنَ الْمَلِكِ وَقَالَ : الآنَ ؛ اجْمَعِ النَّاسَ لِيَشْهَدُوا مَقْتَلِى .

وَنُودِىَ فِى النَّاسِ أَنِ احْضُرُوا لِمُشَاهَدَةِ مَقْتَلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ التَّامِرِ ، فَتَهَافَتُوا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ إِلَى السَّاحَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِى يَتَصَدَّرُ الْمَلِكُ مَجْلِسَهَا . وَسَارَ عَبْدُ اللهِ حَتَّى تَوَسَّطَ السَّاحَةَ ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْمَلِكِ أَنْ : هَيَّا . وَتَقَدَّمَ الْمَلِكُ مِنْ عَبْدِ اللهِ يَحْمِلُ سَيْفَهُ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ يُرِيدُ ضَرْبَ الْفَتَى عَلَى عَاتِقِهِ

بالسَّيْفِ فَلَمْ يُطَاوِعْهُ قَلْبُهُ ، وَلَمْ تُطَاوِعْهُ يَدُهُ ، فَنَزَلَ بِهَا فِي ضَرْبَةٍ هَيِّنَةٍ لَيِّنَةٍ أَصَابَتْ صُدْغَ الْغُلَامِ الذِي نَادَى يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ . ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ الضَّرْبَةِ مِنْ صُدْغِهِ ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ يَلْفِظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ.

وَظَلَّ النَّاسُ سُكُوتاً لَحْظَةً ، وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ ؛ وَقَدْ أَخَذَتْهُمْ رَجْفَةٌ ، وَمَلَكَتْهُمْ رَهْبَةٌ . ثُمَّ عَلَا صَوْتُهُمْ ، وَدَوَّى صِيَاحُهُمْ فَجْأَةً لَا لِيُعْلِنُوا فَرَحَهُمْ بِمَقْتَلِ عَبْدِ اللهِ ، وَيُظْهِرُوا بَهْجَتَهُمْ لِمَصْرَعِهِ ، وَلٰكِنْ لِيُنَادُوا بِحَمَاسَةٍ وَإِيمَانٍ :

آمَنَّا بِالْغُلَامِ ! وَبِرَبِّ الْغُلَامِ !

وَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ الْمَلِكِ إِلَى الْمَلِكِ يَأْخُذُ بِيَدِهِ لِيَعُودَ بِهِ ، وَيَهْمِسَ فِي أُذُنِهِ قَائِلاً لَهُ : جَزِعْتَ أَنْ خَالَفَكَ ثَلَاثَةٌ ؛ فَهَاهُمْ أُولَاءِ أَفْرَادُ شَعْبِكَ جَمِيعاً قَدْ خَالَفُوكَ .

وَلَمْ يَعِشِ الْمَلِكُ بَعْدَ ذٰلِكَ طَوِيلًا ، فَمَاتَ ، وَخَلَفَ مِنْ وَرَائِهِ أَهْلَ نَجْرَانَ يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ الْأُولَى.

٤

وَكانَ عَلَى مُلْكِ الْيَمَنِ إذْ ذَاكَ مَلِكٌ قَوِيٌّ جَسُورٌ جَرِيءٌ ذَكِيٌّ هُوَ زَرَعَةُ بْنُ تُبَّانَ أَسْعَدُ الْحِمْيَرِيُّ وَيُعْرَفُ بِذِي نُوَاسٍ. كَانَ قَدِ اعْتَلَى عَرْشَ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ مِنْ مُلُوكِ بَنِي حِمْيَرَ بِحِيلَةٍ بَارِعَةٍ جَرِيئَةٍ، خَلَّصَ بِهَا مُلْكَ الْيَمَنِ مِنْ أَحَدِ مُغْتَصِبِيهِ مِنْ عَامَّةِ الشَّعْبِ وَصَعِدَ هُوَ عَلَيْهِ، وَكَانَتِ الْيَهُودِيَّةُ حِينَذَاكَ قَدْ أَخَذَتْ تَتَفَشَّى فِي الْيَمَنِ، وَيَعْتَنِقُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. فَمَالَ إِلَى اعْتِنَاقِهَا ذُو نُوَاسٍ. ثُمَّ لَمْ يَمْضِ كَثِيرٌ مِنَ الْوَقْتِ عَلَى تَوْلِيَتِهِ الْمُلْكَ حَتَّى كَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الدَّاعِينَ لَهَا يَحُثُّ شَعْبَهُ عَلَى اعْتِنَاقِهَا، حَتَّى صَارَ أَكْثَرُ رَعِيَّتِهِ يَدِينُونَ بِهَا.

وَوَصَلَ إِلَى ذِي نُوَاسٍ خَبَرُ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَهْلُ نَجْرَانَ، وَجَاءَ إِلَى عِلْمِهِ نَبَأُ مَا دَخَلَ عَلَيْهَا مِنَ الدِّينِ الْجَدِيدِ، فَلَمْ تَرْضَ نَفْسُهُ أَنْ يَكُونَ إِلَى جَانِبِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي صَارَ هُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمُتَعَصِّبِينَ لَهَا دِينٌ آخَرُ جَدِيدٌ، لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، يُهَدِّدُ دِينَهُ

وَدِينَ شَعْبِهِ فَصَمَّمَ عَلَى أَنْ يُحَارِبَ هٰذَا الدِّينَ أَوْ يَمْحُوَ أَهْلَهُ !
وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ عَلَى هٰذَا حَتَّى كَانَ ذُو نُوَاس قَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ لِمُحَارَبَةِ أَهْلِ نَجْرَانَ فِي دِينِهِمْ ، وَعَبَّأَ جَيْشًا لِهٰذَا الغَرَضِ .

وَ بُوغِتَ أَهْلُ نَجْرَانَ بِجَيْشِ ذِي نُوَاس يَدْخُلُ أَرْضَهُمْ ، وَبِرَسُولٍ مِنْهُ يَحْمِلُ إِلَيْهِمْ رَغْبَةَ قَائِدِهِ . وَكَانَتْ رَغْبَةُ الْمَلِكِ الْقَائِدِ هِيَ : اِرْجِعُوا عَنْ دِينِكُمُ الَّذِي صِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِلَّا فَسَنُفْنِيكُمْ عَنْ آخِرِكُمْ !

فَكَانَ جَوَابُ أَهْلِ نَجْرَانَ لِلرَّسُولِ : لَنْ نَرْجِعَ عَنْ دِينِنَا الَّذِي آمَنَّا بِهِ وَلْيَفْعَلْ بِنَا مَلِكُكُمْ مَا يَشَاءُ !

وَحَمَلَ رَسُولُ ذِي نُوَاسٍ رَدَّ أَهْلِ نَجْرَانَ إِلَيْهِ ، فَكَانَ لَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْأَثَرِ مَا جَعَلَهُ يَسْتَشِيطُ غَضَبًا ، وَيَكَادُ يَتَمَيَّزُ غَيْظًا ؛ وَمَا جَعَلَهُ يَأْمُرُ رِجَالَهُ أَنْ يَحْفِرُوا لَهُمْ أُخْدُودًا ، وَيَمْلَئُوهُ حَطَبًا وَوَقُودًا ، لِيُهَيِّئَ لَهُمْ مَحْرَقَةً تَكُونُ لَهُ مَلْهَاةً وَمُتْعَةً !

وَأَسْرَعَ رِجَالُ ذِي نُوَاسٍ يَتَبَارَوْنَ فِي حَفْرِ الْأَرْضِ ، وَيَجِدُّونَ فِي شَقِّ الْأُخْدُودِ الَّذِي أَمَرَهُمْ ذُو نُوَاسٍ بِشَقِّهِ .

وَلَمْ يَمْضِ عَلَى ذٰلِكَ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ الْأُخْدُودُ قَدْ جُهِّزَ وَأُعِدَّ وَمُلِئَ بِالْحَطَبِ وَالْوَقُودِ، وَأُضْرِمَتْ فِيهِ النَّارُ، وَهُيِّئَ لِاسْتِقْبَالِ أَهْلِ نَجْرَانَ!

وَتَفَرَّقَ جُنُودُ ذِي نُوَاسٍ بِأَمْرِ قَائِدِهِمْ فِي أَنْحَاءِ نَجْرَانَ يَجْمَعُونَ أَهْلَهَا، وَيَسُوقُونَهُمْ نَحْوَ الْأُخْدُودِ الَّذِي جَلَسَ عَلَى حَافَتِهِ ذُو نُوَاسٍ وَكِبَارُ قَادَتِهِ، يَنْتَظِرُونَ وُفُودَ الْوُفُودِ الَّتِي سَيُقَدِّمُونَهَا طَعَامًا لِلنَّارِ.

وَجِيءَ بِجَمَاعَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: جَمَاعَةً جَمَاعَةً، حَيْثُ كَانُوا يُعْرَضُونَ جَمِيعًا عَلَى مَجْلِسِ ذِي نُوَاسٍ، فَيُخَيِّرُهُمْ أَهْلُ الْمَجْلِسِ بَيْنَ الرُّجُوعِ عَنْ دِينِهِمْ، أَوْ إِلْقَائِهِمْ فِي النَّارِ. فَمَنْ وَجِلَتْ نَفْسُهُ خَوْفًا مِنْ لَهِيبِ النَّارِ، وَخَشِيَ لَظَاهَا، وَشِدَّةَ سَعِيرِهَا، فَارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ — تُرِكَ لِشَأْنِهِ وَأُطْلِقَ سَرَاحُهُ. وَمَنْ تَشَبَّثَ بِدِينِهِ، وَرَفَضَ الِارْتِدَادَ عَنْهُ مُفَضِّلًا الِاحْتِرَاقَ بِهٰذِهِ النَّارِ عَلَى نَارِ الْآخِرَةِ — أُلْقِيَ فِي الْأُخْدُودِ، حَيْثُ يُصْبِحُ بَعْدَ قَلِيلٍ رَمَادًا.

وَعُرِضَ عَلَى النَّارِ مِنْ بَيْنِ مَنْ عُرِضَ عَلَيْهَا مِنَ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ صَادِقَةُ الْإِيمَانِ يَتَعَلَّقُ بِهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ، فَلَمَّا

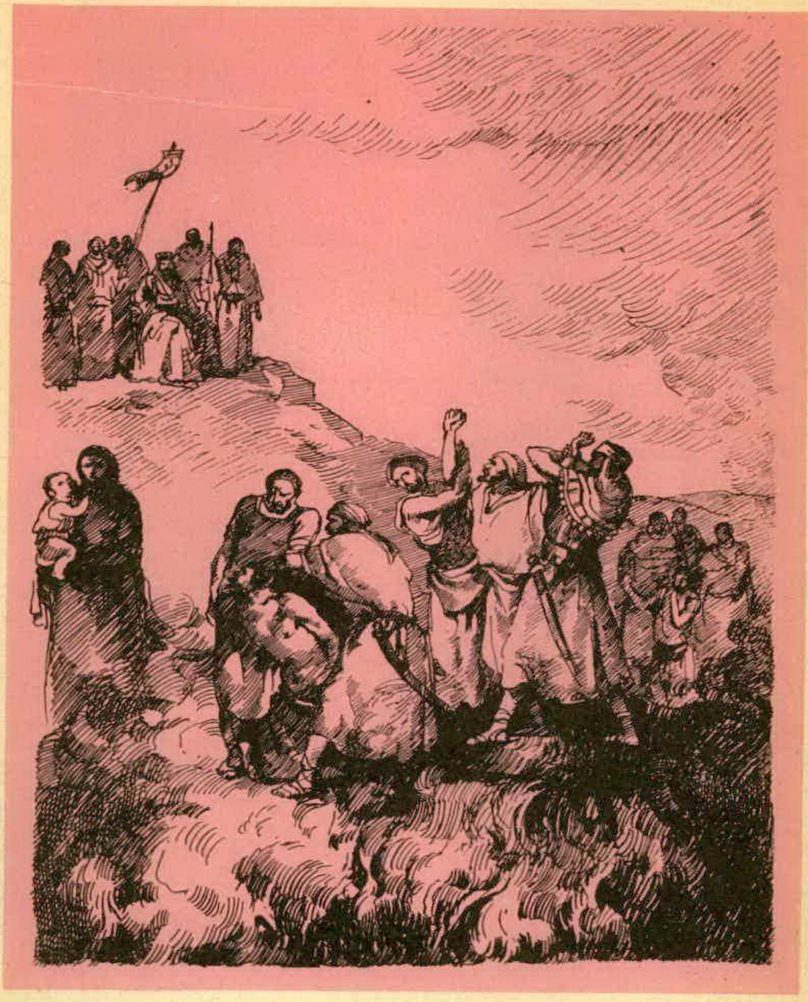
خُيِّرَتْ بَيْنَ النَّارِ أَوْ الِارْتِدَادِ عَنْ دِينِهَا ، ضَعُفَتْ نَفْسُهَا ، وَعَزَّ عَلَيْهَا فِرَاقُ طِفْلِهَا ، فَسَكَتَتْ حَيْرَى تَتَسَاءَلُ :

أَتَخْتَارُ الْإِيمَانَ وَالنَّارَ وَمُفَارَقَةَ طِفْلِهَا ؟ ! أَمْ تَخْتَارُ الِارْتِدَادَ وَالْعَيْشَ بِجَانِبِ وَلَدِهَا وَفِلْذَةِ كَبِدِهَا ؟ ! .

وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ إِذْ ذَاكَ تَنْظُرُ إِلَى طِفْلِهَا بِعَيْنَيْنِ مُغْرَوْرِقَتَيْنِ بِالدُّمُوعِ ، وَكَأَنَّهَا تُسَائِلُهُ مَا تَصْنَعُ مِنْ أَجْلِهِ ؟ أَتَبْقَى بِجَانِبِهِ كَافِرَةً ؟ ! أَمْ تَذْهَبُ إِلَى النَّارِ مُؤْمِنَةً ؟ ! وَلَشَدَّ مَا كَانَ عَجَبُهَا وَعَجَبُ مَنْ حَوْلَهَا حِينَمَا قَطَعَ هٰذَا الطِّفْلُ حَيْرَتَهَا ، وَأَزَالَ تَرَدُّدَهَا فَرَفَعَ وَجْهَهُ إِلَيْهَا وَخَاطَبَهَا بِلِسَانٍ مُبِينٍ — وَلَمْ يَكُنْ تَعَلَّمَ الْكَلَامَ مِنْ قَبْلُ — بِقَوْلِهِ : أُمَّاهُ ؛ اثْبُتِي فَإِنَّكِ لَعَلَى حَقٍّ !

عِنْدَئِذٍ تَخَيَّرَتِ الْمَرْأَةُ مَصِيرَهَا ! وَتَقَبَّلَتِ النَّارَ بِقَلْبٍ مُطْمَئِنٍّ ، وَنَفْسٍ سَعِيدَةٍ رَاضِيَةٍ . ! !

وَأَكَلَتِ النَّارُ رِجَالًا ، وَالْتَهَمَتْ نِسَاءً ، وَأَوْدَتْ بِحَيَاةِ أَطْفَالٍ لَا ذَنْبَ لَهُمْ جَمِيعًا وَلَا جَرِيرَةَ غَيْرُ إِيمَانِهِمْ بِاللهِ ، وَتَفَانِيهِمْ فِي عِبَادَتِهِ وَرِضَاهُ .



اللهب يتصاعد من الأخدود والجنود يقذفون الناس فيه
والمرأة يناجيها طفلها

وَهٰكَذَا ظَلَّتِ النَّارُ تَتَأَجَّجُ فِي الْأُخْدُودِ أَيَّامًا، لَا تَكَادُ أَلْسِنَةُ لَهِيبِهَا تَخْبُو حَتَّى تُضْرِمَهَا ثَانِيَةً شُحُومُ أَجْسَادِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكَادُ زَئِيرُهَا يَسْكُنُ حَتَّى يُثِيرَهُ مَا يُلْقَى فِيهَا مِنْ وَقُودٍ جَدِيدٍ.

وَذُو نُوَاسٍ وَجُنُودُهُ قُعُودٌ بِجَانِبِ الْأُخْدُودِ يُشَاهِدُونَ حَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَتْبَاعِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ، وَيُمَتِّعُونَ عُيُونَهُمْ بِرُؤْيَتِهِمْ يَتَعَذَّبُونَ وَيَتَقَلَّبُونَ فِي النَّارِ، وَيُطْرِبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِسَمَاعِ صُرَاخِهِمْ وَأَنِينِهِمْ وَمَا ذَنْبُهُمْ لَدَيْهِمْ إِلَّا دُخُولُهُمْ فِي دِينٍ غَيْرِ دِينِهِمْ وَمَا نَقَمَتُهُمْ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ تَرَكُوا الْكُفْرَ وَآمَنُوا بِاللّٰهِ!

وَأَخِيرًا خَبَتِ النَّارُ بَعْدَ أَنْ أَتَتْ عَلَى أُكْلِهَا مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ اسْمُهُ دَوْسٌ ذُو ثُعْلُبَانَ، تَمَكَّنَ مِنْ أَنْ يَفِرَّ هَارِبًا عَلَى ظَهْرِ فَرَسٍ لَهُ مِنْ وَجْهِ الْمُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ.

وَمَضَى الرَّجُلُ عَلَى وَجْهِهِ يُرِيدُ قَيْصَرَ الرُّومِ أَوْ نَجَاشِيَّ الْحَبَشَةِ الْمَسِيحِيَّيْنِ يَسْتَغِيثُهُمَا لِنَجْدَةِ أَهْلِ نَجْرَانَ، وَيَسْتَنْصِرُهُمَا لِنُصْرَةِ الدِّينِ.

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع)

مجموعة القصص الدينية

تتضمن هذه المجموعة قصصاً شائقة ، فيها تنوير للقلب ، ودعوة إلى الحق ، وإيمان بالمبدأ ، واتصال بالله . جرت حوادثها مع رجال غلبت عليهم الروحانية ، وأعلنوا الحق غير مبالين أن يصيبهم ما يصيبهم ، ولو كان فيه تلف نفوسهم : فهي الشجاعة في إبداء الرأي ، ونصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم ، وهي ثورة على الفساد ، ومحاربة الطغيان ! ثم انتصار الحق والفضيلة والخلق الكريم .

١ – قابيل وهابيل	١١ – عام الفيل
٢ – سبأ	١٢ – زمزم
٣ – ذو القرنين	١٣ – مؤمن آل فرعون
٤ – قارون	١٤ – طالوت وجالوت
٥ – موسى والخضر	١٥ – العزير وحماره
٦ – بقرة بني إسرائيل	١٦ – شكر النعمة
٧ – أصحاب القرية	١٧ – الإسراء والمعراج
٨ – أهل الكهف	١٨ – سدرة المنتهى
٩ – أصحاب الأخدود	١٩ – بائع الأمراء
١٠ – أصحاب الفيل	٢٠ – جريج العابد

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة